أسطور OSTOUR

التسلم Received 2022-11-30
التعديل Revised 2023-07-10
القبول Accepted 2023-07-25

الرقم التعريفي: DOI: https://doi.org/10.31430/WCCZ4051

يحيى بولحية | Yahya Boulahya*

قضايا تاريخية وإشكالات تحديثية في كتاب "ذكريات شخصية لحياة حميمة بالمغرب" لمدّالينا شيزوتي فرارا**

Historical Issues and Problems of Modernisation in the Book “Personal Memories of an Intimate Life in Morocco” by Maddalena Chizzotti Ferrara

أوردت مدّالينا شيزوتي فرارا في كتاب **ذكريات شخصية لحياة حميمة بالمغرب** معلومات تاريخية مهمة، لا نجدها في مصادر التاريخ الموازية. يفيد الكتاب المهتمين بالفترة التاريخية موضوع الدراسة، باعتبار المؤلفة زوجة المسؤول الثاني عن دار الماكينة في فاس. حاولتُ في قراءة الكتاب المترجَم، وبأسلوب استقرائي للنصوص، ومقارنتها بالمصادر التاريخية للفترة نفسها، استنتاج الجديد الذي يمكن أن يفيد البحث التاريخي ويجيب عن بعض التساؤلات التحديثية.

كلمات مفتاحية: المغرب، دار الماكينة، الحسن الأول، فاس.

In “Personal Memories of an Intimate Life in Morocco”, Ferrara presents important historical information absent from parallel sources. The book is of particular value to those interested in the historical period under study, as its writer was the wife of the deputy director Dar Al-Makina, an arms factory in Fez. This paper applies an inductive approach to the text and compares it with other historical sources of the period, in an attempt to draw new conclusions that may be of use to historical researchers and answer certain questions about the Morocco’s modernisation process.

Keywords: Morocco, Weaponry, Hassan I, 19th century, Fes.

* أستاذ التعليم العالي المساعد في مركز التربية والتكوين لجهة الشرق بوجدة، المغرب.

Assistant Professor of Higher Education at the Center for Education and Training East in Oujda, Morocco.

yahyathese2007@gmail.com

** مدّالينا شيزوتي فرارا، **ذكريات شخصية لحياة حميمة بالمغرب**، ترجمة مصطفى نشاط وناصح رضوان (الرباط: مطابع الرباط نت، 2019). وقد كان الكتاب موضوعًا ليوم دراسي عُقد في مركز التربية والتكوين بوجدة، ونُشرت أعماله ضمن منشورات المركز، في عام 2022.

مقدمة

أضحت المواضيع التاريخية المثارة اليوم تمتح من روافد مختلفة، لا تنتمي حتمًا إلى الدرس التاريخي المعروف، وتسمح بإنتاج الجديد من البحوث والقضايا، من زوايا نظر متباينة، كما تُبذل الجهود في بعث النصوص وترجمتها، وتبدو أهميتها الخاصة، إذا كانت تتناول مواضيع غير معتادة في المتن التاريخي، من قبيل أدب الرحلة الأوروبية، وما تضمّه من ملاحظات ومعاينات، تفيد كثيرًا في ترميم الذاكرة التاريخية، وتوضيح ما سكتت عنه المصادر التاريخية المألوفة، باعتبار طبيعة المهمة التي كانت تسمح للرحالة الأوروبيين بمعاينة قريبة للظواهر التحديثية، وإبراز الملامح الثقافية والسوسيولوجية للمجتمعات الموصوفة.

أظن أن المواضيع المثارة في متن الرحلة الأوروبية، خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، يحكمها خيط ناظم، يخص ممارسة حفريات عميقة في قضايا مهملة، وتكتسي طابع الجدة، وتتحلّى بلباس بحوث إشكالية، تثير الأسئلة، وتروم ترميم الدرس التاريخي وملء بياضاته، مستفيدةً مما تتيحه المناهج التاريخية الجديدة وفضاءات الترجمة، وما سمحت به من إمكانية توسيع منافذ البحث والاستقصاء وتوظيف المعلومات المختلفة في الإجابة عن إشكالات تاريخية متعددة.

نودّ القول في البداية إن حركة الترجمة في حقول التاريخ المختلفة في المغرب، على الرغم من أهميتها البالغة، فإنها ما زالت في مراحلها الجنينية، وفي وضع لا يُسعف في تمتين أواصر المعرفة التاريخية[1]. وإذا كانت المحاولات الأكاديمية حثيثة، وفي منحى تصاعدي ومهم، فلأننا نحتاج إلى حفريات راسخة في عملية الترجمة، مسترشدين بالعلامات المضيئة الخاصة بالموضوع، من قبيل اجتهادات خالد بن الصغير، في الترجمة من الإنكليزية إلى اللغة العربية[2]، وكذا محاولات محمد جادور ومحمد حاتمي، وترجمات محمد حبيدة، ومحمد الغرايب، من الفرنسية إلى العربية، علمًا أننا نجد جهود الترجمة، أيضًا، في مصنفات تاريخية عامة، بذل مؤلفوها جهدًا علميًا رصينًا في توفير الترجمة المناسبة لوثائق تاريخية أجنبية، ومثال ذلك ما أوردته الباحثة بهيجة السيمو من معلومات نادرة عن الأرشيف الإيطالي[3]، وترجمته إلى العربية، وما ضمّه من معلومات تاريخية مهمة، تخص العلاقات المغربية - الإيطالية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

أهمية الكتاب المترجم

ينتمي الكتاب محل الدراسة إلى ما يمكن تسميته بالمصادر اللاإرادية أو الدفينة، بتعبير المرحوم محمد المنوني، ويكتسي أهمية خاصة، نظرًا إلى موقع مؤلّفته، شيزوتي[4] بوصفها زوجة المسؤول الثاني عن دار السلاح في فاس.

---

1 أشير على سبيل المثال إلى أن كتاب **المغرب** لإدموندو دو أميسيس، الصادر في عام 1876، بالإيطالية، قد تُرجم إلى الفرنسية في عام 1882.

2 أشار خالد بن الصغير إلى طبيعة المشروع، الترجمة، الذي يريد تأسيسه وقال: "ويدخل نشرنا لهذا الكتاب 'القضاء المتعدد'، في إطار مشروع نطمح إلى أن يكون موسعًا وبعيد المدى، واستهدفنا منه الانفتاح على نتائج الدراسات المعاصرة التي تحققت في بعض الجامعات الأمريكية ذات الاهتمام بالبحث في المواضيع التاريخية، بأبعادها الاجتماعية والأنثربولوجية والسياسية والاقتصادية المتعلقة بالمغرب، باعتباره أحد الأقطار الفاعلة في منطقتي شمال أفريقيا وحوض البحر الأبيض المتوسط. ينظر: جيسيكا مارجلين، **القضاء المتعدد: اليهود والمسلمون في المغرب المعاصر**، ترجمة خالد بن الصغير (الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2021)، ص 8.

3 بهيجة سيمو، **العلاقات المغربية - الإيطالية (1869-1912م)** (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة؛ منشورات اللجنة المغربية للتاريخ العسكري، 2003).

4 مدّالينا شيزوتي فرارا، هي شابة إيطالية، قدِمت مع زوجها فرارا إلى المغرب، واستقرت في فاس مدة سنتين ونصف السنة؛ إذ وصلت إليها في كانون الأول/ ديسمبر 1897، وغادرتها في أيار/ مايو 1900. وأما عن سبب استقرارها في المغرب، فيكمن في أنها رافقت زوجها فرارا، رئيس البعثة الإيطالية المكلفة بمصنع الأسلحة في فاس، الذي يعرف بـ "الماكينة"، وهو الذي اتخذت منه إحدى بوابات فاس اسمًا لها. وقد عاودت شيزوتي زياراتها إلى المغرب بعد ذلك صحبة زوجها. وفي عام 1911 ألّفت كتابها الذي عنونته بـ **ذكريات شخصية عن حياة حميمة بالمغرب**، اعتمادًا على ذاكرتها والرسائل التي كانت تبعث بها إلى أبيها (من مقدمة الكتاب).

جمع الكتاب بين أدب الرحلة وتقنية الترجمة. وضمن هذا السياق، حاول مصطفى نشاط[5] التطرق إلى موضوع الترجمة، من الإيطالية إلى العربية، ضمن مشروع أوّلي، يخص فحص الذهنية الإيطالية واستنتاج انطباعاتها الذاتية حول المغرب، سلطة ومجتمعًا وثقافة، من خلال كتابات وتنظيرات لمجموعة من المفكرين والرحالة الإيطاليين، قصد إطْلاع الجمهور العربي على متن تاريخي، يحقق الإفادة العلمية المنشودة.

لا شك في أن الباحث في موضوع التاريخ، باطّلاعه على نصوص أجنبية مهمة، تنشأ لديه رغبةٌ جامحة، تدفعه إلى ترجمتها إلى العربية، ليقينه بجدواها وفائدتها للمتعطشين للمعرفة المبتورة والناقصة.

ضمن هذين الضابطين، الترجمة وأدب الرحلة، بدأ نشاط مشروعه بترجمة هذا الكتاب، وهي ترجمة مشتركة مع رضوان ناصح[6] المتخصص في اللغة الإيطالية وآدابها، كما ترجما، ضمن النسق المشروعي نفسه، كتاب **تحت الخيمة** للويجي برزيني، وكتاب **ماضي العالم العربي ومستقبله من خلال مقدمة ابن خلدون** لماسمو كمبنيني.

قدّم مصطفى نشاط دراسات متعددة، تخص مواضيع التهميش والمهمشين، مثل **السجن والسجناء**[7] و**المرتزقة**[8] و**المواد المسكرة**[9]، وواجه صعوبات متعددة في ملء المتن التاريخي المبتور، من أهمها شح الإشارات المصدرية وصمتها عن إيراد واقع الفئات المهمّشة وأحوالها، خاصة خلال العصر الوسيط. لكن الانفتاح على الإشارات المصدرية في نوافذ لا تنتمي إلى حقل التاريخ (أدب الرحلة، وأدب المناقب، ونصوص الفتاوي الفقهية ... إلخ) شجعه، على غرار مختلف الباحثين، على اقتحام هذا اللون من المواضيع وتقديم مادة تاريخية جديرة بالاحترام والاستثمار.

اهتم نشاط، أيضًا، بكتابة مواضيع تخص التاريخ الوسيط، بحكم التخصص الأكاديمي، لكنّ وعيه بأهمية المصادر اللاإرادية في ملء بياضات المتن التاريخي، أخرجه من دائرة فترة التخصص نحو مظان التاريخ المعاصر، من ثنايا قضايا الترجمة من الإيطالية إلى العربية، بمشاركة ناصح، وهو مجال ما زال بكرًا، ولم يجرِ استثمارُه على الوجه المطلوب.

تكشف المحاولة أهمية العمل المترجَم في إتمام الصورة التاريخية وفكّ غموضها، خاصة إذا كان صاحب العمل المترجَم ذا قيمة تاريخية خاصة، من مثل مدّالينا شيزوتي فرارا التي عاينت، عن قرب، أبرز صورة تحديثية في تاريخ المغرب في أواخر القرن التاسع عشر، وأعني بهذا دار الماكينة في فاس، ودورها في إدماج أكبر عدد من المتعلمين المغاربة الذين درسوا في أوروبا.

إذا كان كتاب شيزوتي لا يرقى إلى مستوى ما دونه كل من إيديميسيس وبرزيني وبيير لوتي، فإن المعلومات التاريخية الواردة فيه نادرة ومهمة، لم ترد لدى كل من برزيني أو إدموندو دي أميشيس[10]، وهي إشارات مصدرية تحتاج إلى استثمار حقيقي في بناء

5 مصطفى نشاط، أستاذ التعليم العالي (متقاعد)، كلية الآداب، جامعة محمد الأول في وجدة، متخصص في التاريخ الوسيط، له العديد من المؤلفات التاريخية. وفي ميدان الترجمة، صدر له إضافة إلى كتاب شيزوتي فرارا، ترجمة كتاب: لويجي برزيني، **تحت الخيمة: انطباعات صحافي إيطالي بالمغرب سنة 1906**، ترجمة ناصح رضوان ومصطفى نشاط (طنجة: سليكي أخوين، 2022). كما ترجم بالمشاركة مع ناصح رضوان أيضًا: ماسمو كمبنيني، **ماضي العالم العربي ومستقبله من خلال مقدمة ابن خلدون** (عمان: دار فضاءات للنشر والتوزيع، 2021).

6 رضوان ناصح، أستاذ الأدب الإيطالي في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني وجامعة عين الشق في الدار البيضاء، يهتم بتاريخ صقلية الإسلامية وبالاستشراق الإيطالي، ترجم بالمشاركة مع مصطفى نشاط ثلاثة كتب من الإيطالية إلى العربية، وهي المذكورة في الهامش السابق.

7 مصطفى نشاط، **السجن والسجناء: نماذج من التاريخ الوسيط** (الرباط: منشورات المجلس الوطني لحقوق الإنسان، 2012).

8 مصطفى نشاط، **إطلالات على تاريخ المغرب خلال العصر المريني** (وجدة: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2003).

9 مصطفى نشاط، **جوانب من تاريخ المشروبات المسكرة بالمغرب الوسيط** (الرباط: منشورات الزمن، 2006).

10 Edmondo De Amicis, *Le Maroc*, Henri Belle (trad.) (Pais: Librairie Hachette, 1882).

الدرس التاريخي المتعلق بإشكالية التحديث في المغرب، وموضوع البعثات التعليمية المغربية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

إشكالية البحث

بعد هذه المقدمة، نتساءل عن الجديد الذي أضافه الكتاب/الترجمة؟ وهل يمكن أن تملأ المعلومات الواردة فيه بعض البياضات الخاصة بموضوع البعثات التعليمية المغربية؟

هل يفتح الكتاب المترجم وأمثاله آفاق البحث التاريخي في المغرب، خاصة في موضوع التحديث والبعثات التعليمية، باعتباره آلية جرى توظيفها، ضمن السياق الإصلاحي العام في المغرب، في أواخر القرن التاسع عشر؟

السياق العام للكتاب

يدخل كتاب شيزوتي ضمن أدب المذكرات، وإن كان بعض فصوله يُدرج ضمن أدب الرحلة، حيث تُحدّثنا الكاتبة عن مشاهداتها وسفرها، ذهابًا وإيابًا ما بين طنجة وفاس. فهي ليست كاتبة محترفة - كما تعترف بذلك، في مقدمة كتابها - على غرار ما نجد لدى إدموندو دي أميشيس أو بيير لوتي[11]، أو في رحلات إيطالية أخرى تميزت بالعمق في التحليل والملاحظة والاستنتاج، ومنها رحلة لويجي برزيني[12].

يُدرَج الكتاب، كما قلت، ضمن المصادر اللاإرادية التي ضمّت معلومات تاريخية حول دار باب الماكينة في فاس؛ ويقول المترجمان عن الكتاب إنه نادر جدًا، نُشر في عام 1912، وتأخرت ترجمته إلى هذا الزمن، ما يدل على إشكالية الترجمة التي أشرتُ إليها آنفًا.

قدِمت شيزوتي، رفقة زوجها إلى المغرب، واستقرا في فاس سنتين ونصف السنة، إذ وصلا إليها في عام 1897؛ أي ثلاث سنوات بعد وفاة السلطان الحسن الأول (1873-1894)، وغادرتها في أيار/ مايو 1900، وهي فترة جد حرجة في تاريخ المغرب السياسي والدبلوماسي، وتمثّل انتقالًا سياسيًا صعبًا، نظرًا إلى المكانة التي كان يتبوّأها السلطان الحسن الأول، وبداية انهيار الفعل السياسي في أثناء عهد الوصاية وفترة حكم عبد العزيز (1894-1908).

تنتمي شيزوتي إلى عائلة عسكرية إيطالية، فهي ابنة لودوفيكو شيزوتي (1838-1912) الذي كان من منظّري الحياة العسكرية في إيطاليا، من خلال مساهمته في قيادة بعض حروب الوحدة الإيطالية، وتأسيسه ومشاركته في إصدار مجلات تهتم بالشأن العسكري (مقدمة المترجمَين). وتنحدر من عائلة أرستقراطية، من شمال إيطاليا، وعاشت طوال حياتها في أوساط عسكرية، وهي أوساط نشاط التيار المحافظ والإمبريالي في المجتمع الإيطالي؛ لذا ليس مستغربًا، إن وجدنا في صفحات مذكراتها، الصور النمطية كلها التي كانت متداولة في ذلك الوقت في إيطاليا، حيث شاركتها من دون تردد في كتابها.

يُمثّل الكتاب، إذًا، وثيقة تاريخية مهمة، تُعبّر عن صورة المرحلة وإشكالاتها المتباينة والمتعددة، وتقدّم معلومات من وجهة نظر إيطالية، امتزج فيها الحدث التاريخي بالانطباعات الذاتية. ونقتصر في هذه الدراسة على تناول القضايا التحديثية، حصرًا للموضوع، وتحقيقًا للفائدة العلمية.

---

11 Loti Pierre, *Au Maroc* (Paris: La boite de document, 1988).

12 تمثل رحلة لويجي برزيني نموذجًا متميزًا في استقصاء المعلومات وبنائها وتأويل مقتضياتها، نظرًا إلى المهمة التي اضطلع بها. ولما كان الرجل صحافيًا متمرسًا، ومن "خيرة الصحافيين الإيطاليين في الفترة التاريخية الممتدة بين عام 1901 ونهاية الحرب العالمية الأولى"، فقد كانت له قدرة على التعريف بثقافات الشعوب البعيدة وحكاياتهم وأساليب حياتهم. ينظر: برزيني، ص 7. ويستنتج القارئ لمتن رحلته الأبعاد السوسيولوجية والأنثروبولوجية التي وظّفها لفهم خصوصيات السلطة والمجتمع في المغرب في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

الدراسات السابقة

تناولت دراسات سابقة مواضيع هذا الكتاب من زوايا نظر مختلفة، ومنها إطلالة تعريفية من محمد جادور[13]، لمحاور المؤلَّف المترَجم، أبرز فيها "أهمية الكتاب في تمثل أدب الرحلة النسوي للأرض والناس، إبان مرحلة مفصلية من تاريخ المغرب، عند نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وذكر أن الاهتمام بالرحلات انصبّ في الأساس على الرحلات الفرنسية والإنكليزية، وبدرجة أقل الإسبانية، في مقابل إهمال نظيرتها الإيطالية"[14]. وهذا ما يجعل من الترجمة موضوع الدراسة ذات أهمية بالغة ضمن المتن التاريخي للمغرب في الفترة المعاصرة.

من جانب آخر، تناول جلال زين العابدين موضوع الكتاب[15] من زاوية تحليلية ونقدية، وفي نظره، حاولت شيزوتي، من خلال هذه الرحلة التي ابتدأتها من طنجة، وأنهتها في فاس، مرورًا بالعرائش، إبانةَ المغرب في صورة الفضاء البدائيّ الجامد والغارق في التقليدانيّة، حيث اجتهدت في رسم لوحة قاتمة لمغرب مُدْرج بأشكال العتاقة والدونيّة والانحطاط كلها، ورسم التفاوتات القائمة بينه وبين واقع الذات (إيطاليا)[16]. وهي قضايا تركّز على قيم الاستعلاء، وتضمّ بذور الفكر الإمبريالي، كما وردت في نصوص كتاب شيزوتي.

على مستوى الدراسات الأجنبية، توجد دراسة بالفرنسية، نهجت بعد المقارنة بين متن رحلة كل من برزيني وشيزوتي[17]، واهتمت أساسًا بوصف ثقافة الحريم في المغرب من خلال رحلة شيزوتي، والوصف الدقيق الذي قام به برزيني لأوضاع المغرب السياسية والاجتماعية.

وكذلك أشارت الباحثة بهيجة سيمو[18] إلى كتاب شيزوتي، واستثمرت ذلك في تحليل مقاطع خاصة بالعلاقات المغربية - الإيطالية في أواخر القرن التاسع عشر، وأطلعت المهتمين على متن تاريخي جدير بالتتبع والاستثمار، حيث تُعدّ سيمو رائدة في موضوع المغرب ضمن الأدب الإيطالي في الفترة موضوع الدراسة، وقد أنتجت أولى الكتابات التي فصلت في الحديث عن كتاب شيزوتي[19] ودار الماكينة في فاس[20]، وعرَّفت مجموع المهتمين من الدارسين والمؤرخين المغاربة بالموضوع، وقدّمت في مؤلفاتها ترجمات رصينة، تفيد الباحث في العلاقات المغربية - الإيطالية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. يمثّل كتاب شيزوتي في نظر سيمو أهمية خاصة، تختلف عن الكتابات الإيطالية الموازية، في نظرتها إلى المغرب نظرة مستقرة، نابعة من حكم على الأحداث

13 محمد جادور، "مدّالينا شيزوتي فرارا: ذكريات شخصية لحياة حميمة بالمغرب، ترجمة مصطفى نشاط ورضوان ناصح (الرباط: مطابع الرباط نت، 2019)، 254 ص"، مجلة **هسبريس تاموذا**، مج 3، 2019، ص 439-442.

14 المرجع نفسه، ص 439.

15 جلال زين العابدين، "تمثلات مغرب نهاية القرن 19 وبداية القرن 20، بعيون رحالة إيطالية"، **دراسات استشراقية** (بيروت: المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية)، العدد 30 (2022).

16 المرجع نفسه، ص 134.

17 Valerio Vittorini, "Le Maroc dans les récits de voyage de Maddalena Cisotti Ferrara et Luigi Barzini," *Loxias-Colloques*, 11/6/2022, accessed on 5/10/2023, at: https://bit.ly/3TCzjnC

18 سيمو، **العلاقات المغربية - الإيطالية**.

19 المرجع نفسه. أوردت سيمو في مقدمة كتابها، ضمن محور مصادر إيطالية حول المغرب، معلومات وافية ومميزة حول شخصية مدّالينا شيزوتي، ص 20-23.

20 بهيجة سيمو، **الإصلاحات العسكرية بالمغرب (1844-1912)** (الرباط: المطبعة الملكية، 2000). يُعدّ هذا الكتاب أحد المراجع النادرة التي فصّلت بتدقيق في موضوع دار الماكينة في فاس، حيث حددت الإطار التاريخي العام لذلك، باستقراء تاريخي دقيق، وبتتبع المراسلات بين الجانبين المغربي والإيطالي، خاصة في فترة حكم السلطان الحسن الأول (1873-1894)، كما أوردت العديد من الوثائق الأجنبية الفرنسية والإيطالية والأرشيف المغربي، ووظّفتها في بناء متن تاريخي مفصل، مع إبدائها ملاحظات وجيهة تخص مآل المشروع بعد وفاة السلطان الحسن الأول.

والقضايا عن قرب، ومن داخل واقعها التاريخي والاجتماعي[21]. ولا شك في أن ذلك أعطى تلك النظرة النمطية والاستعلائية، على امتداد كتابها/ مذكراتها، حيث رأت المغاربةَ المسلمين بمنظار غربي مسيحي، يصفهم بالتخلف والدونية الحضارية.

إسهامًا مني في قراءة الكتاب، أود التركيز على مسألة لم يتم بحثها بالتفصيل، وتخصّ جوانب محددة تتعلق بالتحديث في المغرب، ومسألة البعثات التعليمية المغربية في أوروبا من وجهة نظر إيطالية، علمًا أن هناك مواضيع أخرى مهمة وردت في الكتاب، وتخص النزعة الإمبريالية، وما تفرّع منها من أحكام انطباعية واستعلائية، تطرّقت إليها سيمو، وجادور وزين العابدين، كما ذكرت آنفًا.

أولًا: ملاحظات أولية حول مؤسسة دار الماكينة في كتاب شيزوتي

يفحص الدارس للفترة التاريخية المذكورة، الكتابَ، انطلاقًا من فرضية تقول بأهميته البالغة في موضوع التحديث، باعتباره مصدرًا تاريخيًا مكمّلًا للأرشيف التاريخي الوطني المغربي، خلال أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حتى لو كانت المعلومات التاريخية الواردة فيه قليلة.

قالت شيزوتي: "بُني المصنع بفاس الجديد، بجانب قصر السلطان داخل سياج السكن الشريفي" (ص 100)، ما يدل، في حد ذاته، على أن المشروع خضع لإشراف مباشر من الدولة المغربية، وكان قريبًا من دار السلطان، رغم المشاكل العديدة التي أثارها اختيار موقع بعيد عن طرق المواصلات، وتحدثت شيزوتي عن ذلك، في أكثر من مناسبة، بأسلوب نقدي جليّ وواضح.

من المعروف لدى الباحثين أن مسيرة التحديث التي عرفها المغرب، منذ زمن محمد الرابع (1859-1873)، وقبله بكثير، حدثت بإشراف مباشر من المؤسسة المخزنية، مثلما أن مختلف السياسات الداخلية والخارجية، حيكت خيوطُها من مؤسسة السلطان، منذ أزمنة متطاولة، مثل تجنيد جيش الحراطين (المولى إسماعيل، 1672-1727) وسياسة الباب المفتوح (سيدي محمد بن عبد الله، 1757-1790)، وسياسة الاحتراز (المولى سليمان، 1797-1822)، وغيرها، ما يدل، بداية، على أن مشروع التحديث، كما كان في مصر في زمن محمد علي، لم يكن اختيارًا مجتمعيًا، بل خضع لإشراف مباشر من مؤسسة السلطان.

أشارت شيزوتي إلى أن كتابها لا يرقى إلى نمط الكتابة التي سجّلها بيير لوتي في كتابه **في المغرب** *Au Maroc*، أو كتاب إيدموندو دي أميشيس، **المغرب**، لكن على الرغم من ذلك، فإن الكتاب يُعدّ وثيقة تاريخية مهمة، تفتح نوافذ حقيقية أمام استثمار الإنتاج المترجم في ملء البياضات العديدة التي يشكو منها المتن التاريخي، خاصة في أبرز وسيلة تحديثية قام بها المغرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهي موضوع البعثات التعليمية المغربية نحو أوروبا وصناعة الأسلحة وسك النقود في دار الماكينة في فاس. وضمن هذا السياق، قالت شيزوتي: "سأكون مقصّرة في الهدف من هذا الكتاب الذي أردتُه أن يكون كله لما هو حميمي وأنثوي، إن أنا أطلتُ في الوصف الدقيق لهذا المعمل الذي تحدثت عنه أيضًا أقلامٌ أكثر تأهيلًا مني" (ص 14). وتفتح عبارة "تحدثت عنه أقلام أكثر تأهيلًا مني"، الأمل في إمكانية العثور على مذكرات أخرى لأطراف إيطالية وأوروبية تحدثت عن معمل السلاح، وخاصة في فترة العنفوان والأوج بين عامي 1893 و1894؛ وفي إمكان جيل الباحثين والمترجمين أن يكثّفوا من عمليات البحث والتنقيب لبعث النصوص وترجمتها بأسلوب مؤسساتي، لإفادة البحث التاريخي وإنعاش الذاكرة التاريخية.

قالت شيزوتي إن مهمة مذكراتها الحميمة لا تبتغي تحليل الدور السياسي الذي قامت به إيطاليا في المغرب، لكن باعتبارها زوجة رئيس البعثة العسكرية الإيطالية، فلا يمكن، كما تقول: "أن نمرّ مرور الكرام على وجود معمل الأسلحة الشريفية، وهو الذي

21 سيمو، **العلاقات المغربية - الإيطالية**، ص 22.

كان سبب إقامتنا بفاس" (ص 139). واعتبرت شيزوتي إقامتَه في فاس، انتصارًا للدبلوماسية الإيطالية، مشيرة إلى أن "باقي القوى الأوروبية لم تكن تنظر بعين الرضى لحصول إيطاليا على امتيازات المخزن التفضيلية" (ص 139).

ومحاولةً مني لقراءة مضامين الكتاب وفحصها ونقدها، لزم وضعه في سياق عام، يخص مقدمات تأسيس دار السلاح في فاس، من خلال المصادر التي واكبت الموضوع، ومن ثنايا دراسة طبيعة العلاقات المغربية - الإيطالية، واختيار السلطان الحسن الأول لإيطاليا منفّذًا للمشروع، وساهرًا على مراحله المختلفة.

ثانيًا: موضوع دار السلاح في المصادر التاريخية

يمكن اعتبار دار السلاح – الماكينة - المؤسسة الإنتاجية الوحيدة التي نجحت في إدماج أكبر عدد من المتعلمين الذين درسوا في الخارج، فقد حاول الحسن الأول "تجهيز المغرب بما يساعده على صنع السلاح، وإصلاح العدد الحربية داخل المغرب [...] حيث أسند هذه المأمورية عام 1306هـ/ 1888م إلى جماعة من الضباط الإيطاليين"[22]. ووردت بشأن ذلك رسالة وجّهها السلطان إلى النائب محمد الطريس، ذكر فيها: "[...]، وبعد فقد أمرنا أمناء مرسى الدار البيضاء بأن يوجّهوا لك، عن طريق البحر، سبعة وعشرين ألف ريال وخمسمائة ريال وخمسة وثمانين ريالًا (27585) من سكة الصبنيول، بحيث تكون عندك في أول رمضان الآتي، من قبل ثمن مكينات للسكة كلفنا، بجلبها، الكلونيل بريكل الطلياني، معلم الفبريكة بفاس"[23]؛ وهو المسؤول الأول عن دار الماكينة، قبل أن تُسند إلى فرارا زوج شيزوتي، صاحبة الكتاب.

أشار عبد الرحمن بن زيدان، في سياق حديثه عن دار السلاح في فاس، إلى موضوع إدماج بعض أفراد البعثات التعليمية الموفدة إلى أوروبا ضمن أطرها، "وكان ابتداء العمل في بنائها سنة 1305هـ، وانتهاؤه سنة 1308هـ"[24]. وبعد التفصيل في المراسلات التي وجّهها الحسن الأول إلى الممثلين الدبلوماسيين الإيطاليين، ختم صاحب **الإتحاف** ذلك بالقول: "وقد استخدم بهذه الدار، طلبة البعثة المتخرجة من مدارس فرنسا وبلجيكا السالف الكلام عليهم قريبًا، وكان رئيسها الكولونيل الإيطالي بريكليف [يقصد به بريكل] وكبراؤها السيد محمد الصغير[25] والسيد المختار الرغاي[26] والسيد محمد بن الكعاب[27] والسيد إدريس الفاسي[28] والسيد الطاهر بن الحاج الأودي[29]، وعدّد جميع العملة الذين كانوا بها ثلاثمائة عامل من فاس ومكناس ومراكش والرباط وسلوان وغير ذلك"[30].

والكلام السالف الذي أورده بن زيدان في خصوص البعثة التعليمية هو ما سجّله قائلًا: "ثم وجّه بعثة حربية لفرنسا وبلجيكا، فمكثت هناك سبع سنوات، أربع منها بفرنسا، وثلاث ببلجيكا، تخرّجت فيها في صناعة الذخائر الحربية، ثم عادت للمغرب سنة 1305هـ

22 عبد العزيز بنعبد الله، **الجيش المغربي عبر العصور** (الرباط: المطبعة والمكتبة العالمية، 1986)، ص 144.

23 رسالة الحسن الأول إلى الحاج محمد بن العربي الطريس، تطوان، الخزانة العامة، محفظة 114/10، 5 شعبان 1309هـ/ 5 مارس 1892م).

24 عبد الرحمن بن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس** (الرباط: المطبعة الوطنية، 1990)، ج 2، ص 495.

25 محمد الصغير، لم نعثر على اسمه ضمن أفراد البعثات التعليمية التي أوفدها الحسن الأول إلى أوروبا.

26 المختار الرغاي، أحد أفراد البعثة الحسنية الأولى التي توجهت إلى إيطاليا، وكان بصحبة محمد بناني وعبد السلام الجيلاني.

27 محمد بن الكعاب الشرقي، أحد أفراد البعثة التي توجهت نحو فرنسا، وقضى فيها مدة طويلة وتكلف بالترجمة لبعض الوفود التعليمية التي أرسلها الحسن الأول، وترك "مجموعة من التصاميم الخاصة بالآلات الصناعية لإنتاج الأسلحة الثقيلة والخفيفة".

28 إدريس الفاسي، ربما يقصد به إدريس بن عبد الوهاب بو عزة المزداد بفاس، وكان أحد الثلاثة الذين توجهوا إلى إنكلترا، إضافة إلى الزبير إسكيرج ومحمد الجباص.

29 الطاهر بن الحاج الأودي، أحد أفراد البعثة التي اتجهت نحو فرنسا، كان سنه آنئذ 13 عامًا، تكلف بدوره بالترجمة لبعض الوفود التعليمية التي أرسلها الحسن الأول إلى بلجيكا.

30 عبد الرحمن بن زيدان العلوي، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، تحقيق علي عمر (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2008)، ج 2، ص 498.

(1887م)، فلحقت بالحضرة الشريفة برباط الفتح، وأتت معه مكناسة الزيتون، وأقامت بها ستة أشهر، ثم توجهت لفاس لتطبيق العلم على العمل، فدخلت للعمل في دار السلاح"[31]. ويضيف بن زيدان: "كانت هذه البعثة تتركب من الطاهر بن الحاج الأودي، رئيس العملة بدار السلاح، ومعه من فاس محمد المنقري رئيس قسم الزنادات بالدار، ومحمد بن علي الحداد، ومن مكناس عباس بن قاسم رئيس قسم صناعة الجعاب بالدار المذكورة، والمعلم أحمد بن صالح، وإدريس بن الحداد، ومحمد بن أحمد المدعو المشطون، والمعلم حمان، وبسلهام بن حمو، ومحمد بن العباس، وكلهم نجحوا في علومهم، واستخدموا بدار السلاح"[32].

تتحدث الوثائق التاريخية عن وجود كفاءات متخصصة في المجالات التي بدت بمقتضاها دار الماكينة، ما دل على أن مقدمات المشروع وأهدافه كانت واضحة المعالم لدى السلطان الحسن الأول، وأنه كان يروم توظيفهم مكان الأطر الإيطالية التي أشرفت على ماكينة السلاح في فاس.

ثالثًا: ضوابط أساسية في فهم شهادة شيزوتي في خصوص دار الماكينة

تتحدث الإشارات السالفة التي أوردتها الوثائق المغربية عن دار الماكينة في عهد السلطان الحسن الأول، وهي خارج سياق ما أوردته شيزوتي في كتابها، حيث خصصت موضوعها لفترة ما بعد وفاة السلطان الحسن الأول. وإذا كانت المرحلة الأولى قد تميزت بعنفوان التجربة وانخراط العديد من المتعلمين في الدار، فإن مرحلة فرارا، زوج شيزوتي، تؤشّر إلى فترة التراجع والاضمحلال؛ فكان من الطبيعي أن تسجل الكاتبة امتعاضها من الصعوبات العديدة التي وضعتها الإدارة المخزنية المغربية لتعطيل المشروع التحديثي الذي بذلت فيه الدبلوماسية الإيطالية جهودًا حثيثة لإخراجه إلى دائرة الضوء.

تثير شيزوتي الصعوبات الأولية التي رافقت بعثة زوجها، ومنها ما تعلّق بالمسكن الخاص برئيس التقنيين المكلف بتكوين عمال المصنع، وتقول في هذا السياق: "السيد كابا، على الرغم من أن السلطان عيّنه كرئيس تقني لتكوين عمال مصنع الأسلحة، ظل، لمدة شهرين، ينام داخل خيمة أقيمت بحديقتنا، وهو ينتظر من المخزن أن يمكنه من مسكن" (ص 60)؛ ما يدل في حد ذاته على أبرز الأعطاب التي رافقت إقامة دار السلاح في فاس، حيث انتفت الشروط الأولية لنجاح المشروع، من قبيل غياب البنى التحتية والدعامات الكفيلة بتيسير أمور بناء ضخم، من قبيل دار الماكينة في فاس.

من جانب آخر، أقيم المصنع في فاس بعيدًا عن المراسي التي كانت تستقبل قطع الغيار الخاصة به، وهو جانب لم تغفل عنه شيزوتي، وهي تتحدث عن ذلك في أكثر من مناسبة؛ ومن ذلك قولها: "تم نقل حوالي مائتي آلة مع كل أدواتها من الساحل إلى فاس، عبر منطقة تنعدم فيها الطرق والقناطر" (ص 139).

تعطي شيزوتي معلومات تاريخية صحيحة، في خصوص الأشخاص والوقائع الخاصة بموضوع مصنع السلاح في فاس، كأسماء التقنيين والمترجمين والشخصيات المخزنية والطلاب المتعلمين والمحميين الإيطاليين والصعوبات التي اكتنفت مسيرة دار السلاح... إلخ.

ولا شك في أنها سمعت من المقربين، من دوائر القرار السلطاني، خصوصيات حكم الحسن الأول، والقلق التحديثي الذي لازم قراراته وإجراءاته، ومنها سماحه للإيطاليين بإقامة مصنع السلاح في فاس، ضمن سياق ذهني مغربي رافض لمنتوجات الغرب المادية، كما تفصح عن ذلك مجموعة من المراسلات المخزنية.

31 المرجع نفسه، ص 468.

32 المرجع نفسه.

رابعًا: شيزوتي وموقفها من السلطة السياسية في المغرب

يعدّ الحسن الأول من الشخصيات القليلة التي حظيت بتقدير شيزوتي وإعجابها، فنراها تقول عنه: "كان السلطان الكبير المولى الحسن، بفضل ذكائه، يرغب في أن ينقل بلده شيئًا فشيئًا إلى مصاف الشعوب المتحضرة، دون المساس بالتقاليد الدينية، واستخدم بعض العناصر المحلية لجعل المغرب يتطور على الطريقة اليابانية" (ص 88). وإضافة إلى موقفها الإيجابي من السلطان المذكور، تثير الملاحظة معلومة فريدة تخص مدى اطّلاع السلطان الحسن الأول على التجربة اليابانية؛ ذلك أن صورة التحديث اليابانية لم تحضر في الأدبيات التاريخية والدستورية حتى بداية القرن العشرين، مع مشروع دستور الشيخ مراد[33] وفي كتابات الأعرج السليماني[34] وبن زيدان[35] ومحمد داود[36]، كما توجد إشارة مميزة إلى حضور الموضوع الياباني لدى السلطان عبد العزيز عندما استقبل لويجي برزيني بعد نهاية مؤتمر الجزيرة الخضراء في عام 1906، حيث قال: "هيمن موضوع الحرب على حديثنا، سألني السلطان إن كان صحيحًا أن اليابان بلد صغير، وإذا ما كانت روسيا بلدًا كبيرًا، وعما إذا كانت اليابان أصغر من المغرب" (ص 222).

تثير المعلومة المذكورة، على الرغم من قصرها، أهمية خاصة، فهي تدل على أن المعجزة اليابانية وصلت إلى علم الإدارة السياسية المغربية ومثقّفي الدولة وكتّابها، بل إن السلطان يقارن بين اليابان والمغرب، فيقول: كيف لبلد صغير (اليابان) أن ينتصر على روسيا البلد الكبير؟ وهو يشير إلى الانتصار المدوّي الذي حققته اليابان على روسيا القيصرية في عام 1905.

في إمكان الملاحظة المذكورة أن تفتح أمامنا معلومات جديدة، تخصّ درجة معرفة السلطان الحسن الأول بالموضوع الياباني، علمًا أن فرضيات الاتصال بالمشرق العربي (مصر والأستانة) قد تكون مدّت الإدارة المغربية بمقدمات الحضور الآسيوي (الياباني) في أدبياتها السياسية، بفعل ظهور اليابان قوةً دولية جديدة، أهانت الكبرياء الروسي في حرب عام 1905، مع ما رافق ذلك من تهليل عربي لهذا الانتصار، بفعل الموقف الروسي القيصري السلبي من المسألة الشرقية.

في موقع آخر، قالت شيزوتي: "كان السلطان الذكي مولاي الحسن يحمل مشروعه لتمدين المغرب باستخدام العناصر المحلية، فأرسل طلبة من الطبقة العليا، ومن العمال لدراسة المعارف والصنائع الأوروبية، وأرسل بعض هؤلاء الشبان إلى فرنسا وإنجلترا وبلجيكا وأيضًا إلى إيطاليا، وهناك أقبلوا على الدراسة بالمدارس العسكرية والبحرية" (ص 131).

---

33 للتوسع في الموضوع، يمكن الاطّلاع على: يحيى بولحية، "الصحافة والمسألة الدستورية في المغرب قبل الحماية الفرنسية 1916"، **تبين**، العدد 3 (آذار/ مارس 2013)، ص 87-108.

34 أورد الأعرج السليماني موضوع البعثات التعليمية، مستنتجًا العوامل التي أدّت إلى الأزمة وأسست لمرحلة الإفلاس، وفي مقدمها، في نظره، بطانة السوء التي لم تكن تساير تصورات السلطان الإصلاحية. ويستدل على ذلك من خلال مقارنة الأمر بضده الياباني، ويفصح عن ذلك، ذاكرًا: "ولما زاولوا دروسهم وملئوا [ملؤوا] بكل نافع حقائبهم يمموا بلادهم ليبثوا فيها ما ينفع مستقبلهم، فلم يعدموا معاكسًا وقف في سبيلهم وحرم البلاد والعباد ما كان يرجى من فوائد معارفهم بفتح المدارس وسلوك هذا السبيل كما سلكه أهل اليابان [...] فكانت النتيجة أن تقدّم اليابانيون وتأخرنا". محمد بن محمد الأعرج السليماني، "زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ، إعداد عبد الرزاق بنواحي"، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ المعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، 1417هـ/ 1997م، ص 392.

35 تبوأ الحضور التنموي الياباني مكانة متميزة لدى المؤرخ المغربي بن زيدان، عندما قدم هذا الأخير شكلًا من أشكال المقارنة بين مآل التحديث في كل من المغرب واليابان في أثناء تقييمه للبعثات المغربية التي أرسلها السلطان الحسن الأول إلى أوروبا؛ فقد ذكر أن اليابان كان "أحط من المغاربة بكثير، بل لا نسبة إذاك بين المغرب واليابان في الانحطاط، في ذلك الوقت اتجه ملك اليابان هذا الاتجاه نفسه، فوجّه المتعلمين من اليابانيين وأعانته بطانته الحسنة الطيبة القصد، فحصلت النتيجة المنتظرة، وصارت اليابان تُقرّ بعظمتها أعظم الدول وتخشى بأسها". عبد الرحمن بن زيدان، **العلائق السياسية للدولة العلوية**، تحقيق وتقديم عبد اللطيف الشاذلي (الرباط: المطبعة الملكية، 1999)، ص 149-150.

36 تناول محمد داود الموضوع، وذكر قائلًا: "كانت الفرصة سانحة أمام المغرب ليتقدم إلى الأمام خطوات لو أنه خطاها لصار أعلم وأقوى حتى من بلاد اليابان التي كانت تغرق في حمأة التخلف والخرافات والتمسك بمقدسات وهمية كانت كالقيود في الأرجل والسلاسل والأغلال في الأعناق". محمد داود، **تاريخ تطوان** (تطوان: المطبعة المهدية، 1386هـ/ 1960م)، ج 5، ص 359.

وفي موضع آخر تقول: "لو كان من قدر المغرب أن يسيّره حكام حكماء، مثل المولى الحسن لكان بإمكان مساره أن يقوده على درب انتصار الحضارة" (ص 132-133). وتضيف: إن "فكرة إنشاء معمل إيطالي للأسلحة تحققت من خلال ذهنية إيطالية، تمت من خلال رجل السياسة الصقلي العظيم فرنسيسكو كرسبي (1819-1901)، والعقلية الأخرى كان يمثلها مولاي الحسن أحد أكبر أذكياء ملوك المغرب الذي خطط لنقل بلده، اعتمادًا على وسائله الخاصة، إلى مستوى البلدان المتمدنة" (ص 140).

تدل الإشارات الواردة لدى شيزوتي على الإعجاب بفترة حكم الحسن الأول، وتعتبره حاملًا لمشروع تحديثي. وموازاةً مع ذلك، كانت توجه النقد المبطن والعلني إلى الإدارة المخزنية الجديدة، ممثلة في عهد الوصاية وفترة حكم باحماد والسلطان عبد العزيز، بل إنها صرّحت بذلك عندما قالت: "وخلافًا للطبع الفاسد للأمير الشاب، كان باحماد يعارض بقوة، من منطلق وطني، كل ما هو أوروبي، وبالتالي كان يعتبر ألّا جدوى من مصنع"، كما نلمس المرارة التي كانت تشعر بها من جراء العراقيل التي وضعتها الإدارة المغربية أمام المشروع الإيطالي المذكور، فتقول: "إن تحول الشعوب بطيء، لأنه من الصعب ثنيها عن الأفكار الموروثة، غير أن المغرب الذي يسير أولًا بعقل مستقل، لكنه خشن وضيق مثل باحماد، ثم بطفل فاسد مثل المولى عبد العزيز" (ص 132).

لا شك في أن مخالطة شيزوتي للدبلوماسيين الأوروبيين، من أصدقائها وأصدقاء زوجها في فاس، ولبعض وجوه الدولة المغربية، مثل محمد المقري، وبعض المحميين الإيطاليين، منحها معلومات عميقة حول دهاليز السياسة الداخلية للمغرب، وطبيعة الرؤية التي كانت تؤطرها في عهد الوصاية، وفي فترة حكم السلطان عبد العزيز. ومن هنا، تأتي أهمية المعلومات التي كانت تقدمها، وهي معلومات، وإن كانت قليلة، لكن وجب الوقوف عندها، باعتبارها جزءًا مهمًا من المصادر التاريخية للفترة موضوع الدراسة، ويمكن توظيفها بوصفها وثيقة تاريخية شاهدة على الأحداث موضوع فترة الدراسة.

خامسًا: صعوبات تسيير معمل الماكينة بحسب شيزوتي

عانى معمل الأسلحة معارضة منظّمة وعنيفة، من رجالات الدولة في المغرب، تجلّت في مظاهر متعددة ومتباينة، ويبدو، من خلالها، موقف شيزوتي العنيف من العراقيل التي وضعها رجال محيط السلطان، ورأت فيهم عقبة ذهنية وإدارية أمام نجاح المشروع الإيطالي في فاس.

في خصوص نقص المعدّات، قالت شيزوتي إن زوجها "طالب باستقدامها من إيطاليا، محدّدًا مصاريفها مسبقًا، لكن المقري تردد في ذلك بسبب الخوف من غضب رؤسائه المباشرين إن هو اتخذ مبادرة غير مرخّص بها من حكومته، وبالتالي لم يتمكن من استقدام المعدات إلى المعمل" (ص 148)، وتشير بذلك إلى أسلوب إدارة داخلية في المناورة والانتظار، ما يثير التساؤل حول حقيقة الرغبة في التحديث من خلال البوابة الإيطالية، أم كان الأمر لا يعدو استثمار الحضور الإيطالي، لموازنة القوى الأوروبية الأخرى المتربّصة بالمغرب. ويبدو أن المقدمات التحديثية لم تكن مناسبة، وتورد شيزوتي في مذكراتها العديد من الصعوبات التي عرقلت تقدّم المشروع التحديثي، من قبيل المسالك الطرقية الصعبة وتأخر وسائل المواصلات والبريد، إضافة إلى العراقيل المرتبطة بالذهنية الوقتية المعارضة للوجود الأجنبي وأشيائه المادية والتحديثية، والعراقيل الخاصة بالتنافس الدولي حول المسألة المغربية، خاصة بين فرنسا وإيطاليا وإسبانيا وألمانيا.

لم تعايش شيزوتي عنفوان التجربة التحديثية الخاصة بدار الماكينة، كما تحدّث عنها بن زيدان، بل كتبت حولها بعد موت الحسن الأول بثلاث سنوات، فكان من الطبيعي أن تؤرخ لمرحلة التراجع والاضمحلال في أثناء فترة عهد الوصاية مع باحماد، والسلطان عبد العزيز، وحملت عليهما بشدة باعتبارهما أسهما في نهاية المشروع الإيطالي في المغرب، وفي إقباره بصفة نهائية.

لم يكن عهد الوصاية مؤهلًا لإتمام المشروع التحديثي الذي بدأه الحسن الأول، ولم تكن بنيته الذهنية تسمح له بذلك، ولا نكاد نجد بعثة تعليمية واحدة تمّت خلال هذا العهد، أو في عهد السلطان عبد العزيز، بل قصارى ما أنجزه العهدان هو إتمام عمليات أوبة بعض المتعلمين، وإغلاق مصنع السلاح وبيع القطع البحرية التي أشرف على إنجازها السلطان الحسن الأول.

يأمل الباحث في تاريخ الفترة موضوع البحث في أن يتم العثور على وثائق إيطالية مشابهة ومعاصرة لفترة حكم السلطان الحسن الأول، لتتم ترجمتها وتوظيفها في ترميم نقائص المعلومات التاريخية؛ كما نأمل في أن ننتج عناوين أساسية ومحورية، تخص وضع المغرب في الأرشيف الإيطالي والبلجيكي والإسباني والأميركي والعثماني، على غرار **المغرب في الأرشيف البريطاني**[37] لخالد بن الصغير، لأن من شأن الترجمة أن تكون اختيارًا لا بد منه، إن أردنا إتمامَ العديد من المعلومات التاريخية الناقصة في ذاكرتنا التاريخية.

وقفت شيزوتي مليًّا عند العراقيل التي كانت تعترض مصنع السلاح في فاس، وقالت عن الحاجب باحماد: "لا توجد ثمة عراقيل لم يرفعها في وجه المصنع، وكأن الصعوبات الناتجة عن جهل العنصر المغربي وكسله وإيمانه بالخرافات لم تكن كافية، وبفعل حسن نيّة المقري وليونة شخصيته، لم يختنق المصنع، وتمكّن من إنتاج خرطوش ممتاز، مثلما هي الحال بمصانع الأسلحة لدينا" (ص 88).

تقتضي المسألة التسلّح برؤية شمولية، لتحديد أسباب التراجع المذكور، من أهمها أن المشروع ارتبط بشخص الحسن الأول، فكرة وتمويلًا واستثمارًا؛ وبوفاته اضطربت الأحوال السياسية، وأضحى عهد الوصاية مفتونًا بتهدئة مفردات الداخل، ومواجهة خصوم باحماد، خصوصًا أولاد الجامعي الذين نكّل بهم في السجون وجرّدهم من أموالهم وممتلكاتهم. وإذا كان مصنع السلاح يُدرج ضمن معالم السياسة الخارجية للمغرب إبان الفترة المذكورة، فلم يكن الحاجب القوي يفقه في ذلك شيئًا، فبذل الجهد لإنهاء المشروع والإشراف على تصفيته بصفة نهائية.

سادسًا: شيزوتي شاهدة عيان على تجربة التحديث من خلال دار الماكينة

تذكر شيزوتي أنها كانت تتردد إلى دار الماكينة، فهي شاهدة عيان على طبيعة العمل داخلها، وتقول في هذا: "وبمجرد ما ندخل إلى معمل الأسلحة، كنا نشعر بأننا بأوروبا، حيث سيادة العمل والانضباط؛ وكان ضجيج الآلات، وأصوات الحركة، وجدية العمال وانضباطهم، يثير فينا إعجابًا كبيرًا، وكنّا نشعر بأننا في بيئتنا. وفي لحظة ما، لم نكن نشعر بأننا بفاس، وإنما بأحد معامل الدول المتطورة والقوية؛ وما كان يبدو غريبًا بالمعمل، هو تلك البزات البيضاء والأرجل الحافية والمظاهر المميزة، والوجوه السوداء أحيانًا للمغاربة، وسط أحد أكبر الاختراعات الحديثة للعلم والميكانيكا" (ص 145). وهي إشارة تدل على طابع النظام والزي الموحد للعمال، وهو نظام جديد لم يعرفه المغرب قبل فترة الحماية السياسية في عام 1912.

من جانب آخر، قدّمت شيزوتي معلومات مهمة عن طبيعة الإدارة الإيطالية لدار الماكينة، ومن ذلك إيرادها معلومات حول مصنع السلاح، من قبيل بعض معالم النظام الداخلي، وإجبار العمال على الزيّ الموحّد، وهو تقليد لم يكن معروفًا في الخدمات الصناعية والحرفية في المغرب، في فترة ما قبل الحماية الفرنسية، وقالت في هذا: "وأما زوجي، فلم تكن له الحرية المطلقة لتخفيف ملابسه، لأنه كان عليه أن يتوجّه، يوميًا، على الحصان إلى ماكينة الأسلحة، وعليه أن يلبس لباسًا رسميًا كيفما كان، ولهذا أعددت له سترات وسروايل بيضاء، من دون شك مجبرًا على ارتدائها، وبدلًا من الأحذية الطويلة كان يحمل أحذية قصيرة" (ص 218).

37 خالد بن الصغير، **المغرب في الأرشيف البريطاني: مراسلات جون دراموند هاي مع المخزن (1846-1886)** (الدار البيضاء: دار نشر "ولادة"، 1992).

أشارت شيزوتي، أيضًا، إلى نظام العطل، وقالت عنه: "ولما شرع معمل الأسلحة في الاشتغال، لم يكن يسمح لأي من أعضاء البعثة بالغياب عنه لمدة طويلة، ولهذا، فرخصُ العطل كانت نادرةً أو قصيرة" (ص 231). كما قالت في موضوع آخر: "عندما رآني زوجي وشعر بدوره بالحاجة إلى استعادة هواء البلد، بعد المرض الذي عانى منه، دخل في الإجراءات الضرورية لدى المفوضية ولدى المخزن، للاستفادة من العطلة، في شهر مايو" (ص 238).

تمثل المعلومات الواردة إضافة نوعية إلى المصادر التاريخية، حيث تذكر شيزوتي، من موقع شاهد العيان، مجموعة من الأنظمة التي أدخلتها إيطاليا إلى المغرب، من بوابة دار الماكينة، كنظام اللباس والعطل والرخص وغيرها، وهي إشارات وجب التوقف عندها، باعتبارها عناصر تفيد الباحث في تاريخ الفترة، علمًا أننا نجد أثرها في وثائق أوردها بن زيدان، وتفصح عن طبيعة النظام الإداري الذي أدخله الإيطاليون على نظام اللباس وامتيازات العطل لأغراض محددة أوردتها المراسلات المذكورة[38].

سابعًا: شيزوتي والتماهي مع "العبقرية" الإيطالية

قالت شيزوتي: "كان الإيطاليون والبعثة العسكرية يحظون، داخل المغرب، بالاحترام وبالشعبية من لدن من كانوا يعملون بمصنع الأسلحة، وكان بعض العاملين به قد تعلموا بأوروبا، وبالتالي كانوا قد تكيّفوا مع التعامل مع النصارى، ويحترمونهم كأنهم معلموهم، ومن بين هؤلاء أحب أن أذكر أحدهم، يسمى حريزي[39]، كان شابًا متيقظًا جدًا، تعلم بميلانو وتورينو على استعمال المبردة والمطرقة، وظل يحن إلى إيطاليا، ويتحدث اللغة الإيطالية بسهولة كبيرة، وكان على استعداد للقيام بأي شيء نطلبه منه، حتى إننا كنا نعتبره فردًا من عائلتنا الفاسية، لأنه كان يظل بمنزلنا، دائمًا تقريبًا، خلال فترات الراحة" (ص 136). وهي إشارة تدل على المرجعية الثقافية التي أطّرت ملاحظاتها المتكررة، حيث لم تكن تمدح الكفاءات المغربية إلّا من حيث اتصالها بإيطاليا، وأوروبا عمومًا، عبر الدراسة والتكوين في المعاهد الإيطالية أو الأوروبية.

قالت شيزوتي إن إقامة دار الماكينة في فاس "يعود الفضل فيه للعبقرية الخلاقة للكولونيل بريكولي، القائد السابق للبعثة قبل زوجي، في تنفيذ الخطة الرائعة لمعمل الأسلحة الإيطالي، والتي أتمّها زوجي بشكل كامل، بمساعدة قائدين تقنيين في المدفعية، وكان محظوظًا بما فيه الكفاية في أن يجعل المعمل منتجًا، وهو الذي كان في وقت من الأوقات مهددًا بأن يصبح متحفًا كبيرًا غير مفيد للآلات الصناعية" (ص 144). وهي معلومات صحيحة، مقارنةً بالوثائق التاريخية موضوع الفترة؛ ذلك أن إيطاليا بذلت، منذ حصولها على الوحدة السياسية، جهودًا حثيثة لإيجاد موطئ قدم لها في شمال أفريقيا (المغرب وليبيا وتونس) وتزايدت طموحاتها التوسعية في أثناء تعيين السفير الإيطالي سكوفاصو.

ثامنًا: انطباعات في حاجة إلى تحقيق تاريخي

من جانب آخر قالت شيزوتي: "ولقد شاهدت مرارًا السيد 'بابوني' والسيد 'كابا' شخصيًا، يعملان بأنفسهما، بالمبرد والمطرقة لتلقين المغاربة بشكل جلي تنفيذ ما كان يبدو صعبًا على عقول بطيئة الفهم، حتى يتمكّنوا من استيعاب أمر شيء لم يسبق لهم فعله" (ص 146).

---

38 قال بن زيدان، وقد وقفت على إذنين أصدرهما بريكل لبعض العملة بالعربية والفرنجية، بتوقيعه، من هذه المراسلات، "تسريح المتعلم علال بن العربي لصلة الرحم بمكناس على عشرة أيام"، 13 آذار/ مارس 1892. بن زيدان، **إتحاف أعلام الناس**، ص 577-578.

39 محمد الحريزي، من أعضاء بعثة عام 1887 نحو إيطاليا، أصله من الرباط، تخصص في الخيالة، وحصل على الحماية الإسبانية.

وجب فهم إشارة شيزوتي هنا ضمن سياقها التاريخي، ويتمثل في مغادرة العديد من المتعلمين المغاربة المؤهلين لدار الماكينة، بسبب وفاة صاحب المشروع، السلطان الحسن الأول، ووضع الإدارة السياسية الجديدة العراقيل أمام امتداده وتطويره، ومن ثمّ فإن ما تسميه شيزوتي بالعقول البطيئة الفهم، ارتبط بتوظيف عمال غير مؤهلين، من ورشات الصناعة في أحياء مدينة فاس، وحتى محمد بن الكعاب الذي ترك تصاميم عسكرية ونبغ في العلوم العسكرية، أُسندت إليه مهمة لا تتعلق باختصاصه التقني العلمي، وهي مهمة الترجمة.

بالرجوع إلى المصادر التاريخية، تتوافر لنا وثائق تُبيّن أن المتعلمين المغاربة في بلجيكا تلقوا تعليمًا تقنيًا وتطبيقيًا، جعلهم مؤهلين للخدمة في دار الماكينة، في بداية افتتاحها، ومن ذلك رسالة الحسن الأول إلى الحاج محمد الغسال، ورد فيها: "وصل كتابك بأن نائب البلجيك طلب تنفيذ ما صير على المتعلمين ببلادهم، كسوة وكراء محل التعلم، وشهرية معلمين، وبقية ثمن مكينة القرطوس، والحوائج والمكينات التي اشتروها ليخدموا بها"[40]. وهي التخصصات نفسها التي احتاج إليها معمل الماكينة في فاس، وتنسجم مع رؤية الحسن الأول للمشروع التحديثي الذي كان يهدف إلى تعويض الخبرة الإيطالية بالخبرة المغربية.

تخصّ شهادة شيزوتي فترة التراجع، ومغادرة العديد من المتعلمين المتخصصين الدار، واكتفاء التقنيين الإيطاليين بتوظيف حرفيين عاديين من مدينة فاس.

وأضافت شيزوتي: كان يجب التحلي باليقظة الدائمة ضد الميل إلى السرقة التي سبق أن أشرت إليها باعتبارها من أخطر عيوب المغاربة، فقد "علّمهم المكر الطبيعي طرقًا عديدة لإخفاء المسروق، وخاصة خلال الأيام الأولى، حيث حاول عدة عمال سرقة قطع الحديد من أجل إعادة بيعه. وقد نجح أحد العمال في إحدى المرات في التمويه، عند المراقبة بمخرج المعمل، وأخفى الأشياء المسروقة في رغيف من الخبز، حتى لا تثار الشكوك حوله" (ص 146). والمسألة هنا لا تخص رفض المنتوج التحديثي واعتباره هباءً لا جدوى منه؛ بل إن عملية السرقة ارتبطت بنظام الأجور، وعدم دفعها أصلًا، ما أدى ببعض العمال إلى سرقة بعض القطع وبيعها، وتشير شيزوتي نفسها إلى هذا الموضوع، عندما تقول: لم "تخصص الأموال الضرورية لأداء رواتب العمال، وكانت رواتب البعثة نفسها تؤدى بعد تأخير كبير وبتدخل من المفوضية" (ص 149). ومن ذلك أجور المترجمين الثلاثة الذين أثارت شيزوتي مسألتهم بتفصيل دقيق. وهي معلومات أوردتها الباحثة بهيجة سيمو، باستقراء متميز للوثائق التاريخية، ذات العلاقة بالموضوع[41].

تاسعًا: المترجمون وعلاقتهم بمصنع الماكينة

بداية لم تفصح شيزوتي عن أسماء المترجمين الثلاثة الذين ذكرتهم في كتابها، باستثناء محمد بن الكعاب الشركي؛ وإن كنّا نعرف أن عدد المترجمين كان أربعة في بداية مشروع دار الماكينة؛ وهم المختار الرغاي ومحمد بناني من البعثة المغربية الأولى نحو إيطاليا، والأكيد أنهما كلفا بالترجمة من العربية إلى الإيطالية وبالعكس، ثم محمد بن الكعاب الشركي والطاهر بن الحاج الأودي، وهما أيضًا من أفراد أول بعثة مغربية نحو فرنسا، وأسندت إليهما مهمة الترجمة باعتبارهما يتقنان الفرنسية.

أشارت شيزوتي إلى المترجمين الثلاثة الموجودين في مصنع الأسلحة، وأن أحدهم درس في إيطاليا، والآخر في بلجيكا، والثالث في فرنسا، وقالت ضمن هذا السياق إذا "كنا لا نعتبر المترجمين الأوّلين منعدمي المعرفة تمامًا، فإنهما حافظا على الشيء القليل مما تعلّماه، ولم تكن لهما شخصية متميزة" (ص 131).

40 رسالة المولى الحسن الأول إلى الحاج محمد الغسال، تطوان: الخزانة العامة، مج: 101/5، بتاريخ 6 رمضان 1304هـ/ 29 مايو 1887م.

41 سيمو، **الإصلاحات العسكرية بالمغرب**، ص 275-308.

على العكس من ذلك، "فالثالث الذي يسمى ابن الكعاب، إن لم يكن في مظهره يختلف عن مواطنيه، ففي جوهره كان يتفوّق عليهما كثيرًا" (ص 132). فما السبب الذي جعل شيزوتي تتعاطف مع محمد بن الكعاب من غير المترجمين الآخرين؟

اشترك محمد بن الكعاب مع الطاهر الأودي في كونهما انتسبا إلى أول بعثة تعليمية إلى فرنسا، حيث تم توجيه ثلاثة متعلمين إليها، "وهم السيد قاسم الوديي والسيد محمد بن الكعاب الشرقي والطاهر بن الحاج بن عبد السلام بن الحاج الأودي"[42]. وكانوا قد عينوا في عام 1291هـ/ أيلول/ سبتمبر 1874 للذهاب إلى طنجة بقصد تعلم اللغة قبل مغادرتهم المغرب[43]. وقد أورد محمد بن الكعاب في كناشته، قائلًا: "بعثنا من جملة الطلبة الذين كانوا تعيّنوا لقراءة اللغة الرومية في منتهى رجب سنة 1291هـ، ثم بعد الإقامة نحو من الستة [كذا] سنين ونصف بثغر طنجة، كنا سافرنا في 18 من ذي الحجة سنة 1297هـ إلى مدينة باريس لتعليم اللغة الأفرانساوية، وكنا بقينا بالمصر المذكور أعلاه لتعليم ما كنا توجهنا بصدده، مدة من أربعة [كذا] سنين ونصف: أعني إلى 22 من شعبان 1301هـ، اليوم الذي أتانا فيه الأمر الشريف على يد الحاج محمد بركاش، في شأن انتقالنا من بلد افرانسة إلى بلد بلجيكة، لنقف على من كان بعث من المتعلمين إلى بلد بلجيكة، لأخذ العلوم والصنائع المفقودات عن المغرب"[44].

تلقى محمد بن الكعاب تكوينًا عسكريًا مدة 14 سنة، وراكم خبرة عسكرية مهمة في تقنية بطاريات المدافع وصناعة الخراطيش وتلفيفها، وعُيّن في الماكينة التي أنشأها الحسن الأول في فاس لصنع الأسلحة الخفيفة، "وكان تحت إدارة الأجانب المشرفين على المعمل، رغم طول خبرته العلمية والعملية. وترك مجموعة من التصاميم الخاصة بالآلات الصناعية، لإنتاج الأسلحة الثقيلة والخفيفة"[45].

يُعدّ تكليف بن الكعاب بالترجمة إجحافًا بكفاءته، وإهمالًا لطول خبرته، وللتصاميم التي تركها في خصوص الآلات العسكرية. صحيح أنه أتقن دور الترجمة، وهو الدور نفسه الذي قام به في أثناء وجوده في بلجيكا، عندما عمل مترجمًا للأفواج التعليمية التي توجّهت إليها، في مراحل مختلفة، لكنه كان متخصصًا في صناعة السلاح، وكان من المتعلمين النوابغ في فرنسا.

في خصوص الطاهر الأودي، فقد "تخرج بفرنسا واستخدم بدار السلاح بفاس، ولم يزل به إلى أن تعطل العمل فيه، عند انتهاء الدولة العزيزية"[46]، وأشار قائلًا: "وبباريز كنت أنا ترجمان السفير بركاش [...] عام 1299 موافق سنة 1880"[47]، وهو الدور نفسه الذي أدّاه رفيقه في الرحلة محمد بن الكعاب.

أشادت شيزوتي بمحمد بن الكعاب ووصفته بنعوت محمودة، وخصصت له ثلاث صفحات من كتابها، على عكس المترجمَين الآخرَين اللذين لم تذكرهما بالاسم واعتبرتهما منعدمي المعرفة.

قالت شيزوتي: "ورغم أن الترجمانين الآخرين كانا يكتبان باللغة الأوروبية بطريقة مفهومة، فإنها كانت مليئة بالأخطاء الإملائية والنحوية، أما فرنسية ابن الكعاب، فكانت صحيحة، وتوحي باستعمال مستمر لها" (ص 132). وتدل الملاحظة على أن لغة الترجمة كانت

42 عبد الرحمن بن زيدان، **العز والصولة في معالم نظم الدولة** (الرباط: المطبعة الملكية، 1382هـ/ 1962م)، ج 2، ص 151.

43 مصطفى بوشعراء، **الاستيطان والحماية بالمغرب (1863-1894)** (الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 1989)، ج 4، ص 1369.

44 محمد المنوني، **مظاهر يقظة المغرب الحديث**، ط 2 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985)، ج 2، ص 244-245.

45 إبراهيم حركات، **التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية** (الدار البيضاء: مطبعة الدار البيضاء، 1405هـ/ 1986م)، ص 38.

46 عبد الرحمن بن زيدان، **الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة** (الرباط: المطبعة الاقتصادية، 1938)، ص 105.

47 الاستبصار في عجائب الأمصار والجبال والأنهار والبحور ومنافيس النار في الأراضين خلقها الله الواحد القهّار للحيوانات والأطيار وللجن والإنس قرار مؤمن للجنة وكافر للنار ونزول البلاء على من طغى وتجبّر، وللعادل رحمة الله الكريم الغفّار، أوردها جمال الحيمر، "البعثات التعليمية في عهد السلطان مولاي الحسن"، بحث أُعد لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، 1407-1408هـ/ 1987-1988م، ص 224. على الرغم من أن لغة الأودي ركيكة، لكنها وثيقة تاريخية بالغة الأهمية.

أيضًا من العربية إلى الفرنسية، حيث قالت شيزوتي إن فرنسية ابن الكعاب كانت صحيحة، ويبدو أنها كانت تتقن اللغة الفرنسية أيضًا، على أساس أنها قيّمت أداء المترجمين الثلاثة، وحكمت على ابن الكعاب بالكفاءة، أما الآخران فكانت ترجمتهما مليئة بالأخطاء المشار إليها سابقًا.

من المعروف أن ابن الكعاب كان ضمن وفد عام 1875 الذي أرسله السلطان الحسن الأول إلى فرنسا، على غرار البعثات الأخرى التي توجّهت نحو ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا، وتم تكليفُه بالترجمة للوفود التعليمية التي توجهت نحو بلجيكا، وكان عدد منهم ممن التحق للعمل بدار السلاح بفاس، وكانوا من أصدقائه الذين يعرفهم ويدرك مؤهلاتهم، كما تمّت الإشارة إلى ذلك سالفًا.

قالت شيزوتي عن ابن الكعاب إنه كان "عنصرًا مهمًا جدًا بمصنع الأسلحة، وبما أنه كان محل ثقة المقري وزوجي، وبينما كان يدفع بالمقري إلى أن يدخل بالمعمل الانضباط والممارسات الأوروبية الضرورية للحصول على المنتوجات المصنوعة بدقة، فإنه كان يحثّ زوجي على الصبر، وعلى أن يتغاضى عن التأخيرات والبطء اللذين لا يمكن تفاديهما في بلد، حيث يجهل الإسراع بالأشياء. كان ابن الكعاب رصينًا نسبيًا لبقًا وذا حس سليم، وحريصًا على القيم التي اكتسبها بالبلدان المدنية" (ص 132).

إن ابن الكعاب كانت له تجربة مريرة في الموضوع نفسه، ففي أثناء إقامته في الخارج كتب تقريرًا عن وضع الطلاب في بلجيكا، في عام 1301هـ/ 1884م، أوضح من خلاله ضعف حالتهم المادية، وتراكم الديون على رفاقه من الطلاب المغاربة، من الجهات البلجيكية التي كانت تنفق عليهم، وختم تقريره قائلًا: "وإن هذه سبعة أعوام ونصف، بقينا مفقودين عن الأهل والوطن، والأعداء لا ينظرون إلينا إلّا بعين الاحتقار، حتى صرنا لا نستلذ طعامًا ولا شرابًا"[48].

وفي رسالة سلطانية، نستنتج بعض أسباب التأخر، في دفع تكاليف تعليم الطلاب المغاربة في بلجيكا، وقد ورد فيها: "فقد أخبرنا أمناء مرسى طنجة، أن ترجمان البلجيك هناك، طلب منهم مؤونة المتعلمين عندهم، وذكر لهم أن قدرها نحو أربعة عشر ألفًا من الفرنك، فتوقفوا في دفعها له، وطلبوا بيان ما يكون عليه عملهم في ذلك، ذاكرين أنهم لا معرفة لهم به، وإنما كانوا يدفعون مؤونة المتعلمين لولد بركاش ويتحاسبون معه"[49]. وعلاقة بالوثائق الواردة، فإن ابن الكعاب كان على دراية تامة بالبيروقراطية التي لازمت عملية التمويل التي أشرفت عليها الدولة خلال الفترة المذكورة، ومن هنا أوردت شيزوتي دور التهدئة الذي قام به إزاء فرارا، المسؤول الثاني عن دار الماكينة المذكورة، باعتباره ذا خبرة وتجربة في الموضوع المذكور.

من جانب آخر كان الطاهر الأودي من بين المترجمين الثلاثة المذكورين، ولم تكن شيزوتي تعلم أنه من المناصرين للمشروع الإيطالي، حيث حمل بشدة على الأطر المخزنية التي عطّلت المشروع، وأسهمت في إيقافه. وضمن سياق تعرّض البعثات التعليمية المغربية لمجموعة من الانتقادات العنيفة، من بعض مكوّنات المخزن - التي كانت ترى في هذا العمل التحديثي خطرًا على مواقعها ومراكز نفوذها، كتب كتابًا عنونه بـ **الاستبصار في عجائب الأمصار والجبال والأنهار...**، ذكر فيه "أنه نصح بالاستعداد لمواجهة التدخل الأجنبي، ولكن الوزراء والكتّاب رموه بالإلحاد. وفي عام 1888 تحدّث الأودي بلغة ركيكة، لكنها مهمة باعتبارها وثيقة تاريخية شاهدة، قائلًا: "بفاس رأيت بعين القلب وزراء وكتّابًا وأمناء دائرة النفاق، كفار بالرزة والشاشية، حين قالوا لأمير المسلمين: كنا ببر النصارى سنين جئنا منها حمور [حميرًا] متنصرين، وتصدروا لنا الأعادي الموروتين [الموتورين] إلى هد [هذه] الساعة ..."[50]. وخص بالذكر عرقلة مشروع مصنع الماكينة الإيطالي بالتحديد، وقال عن وزراء وكتّاب وأمناء الفترة: "وفي ذلك الزمان بطلو [عرقلوا] لنا إنشاء دار السلاح السعيدة، ما نتجت إلّا بتداخول [بتدخل] السفارة الناصحة الطالبانية مدة تسع وعشرين سنة من عام 1305هـ إلى عام

48 أحمد معنينو، "ترجمة مختصرة لتلميذ من بعثة الحسن الأول 1297هـ: محمد بن الكعاب الشركي"، **مجلة البحث العلمي**، العدد 25 (1976)، ص 224.

49 رسالة المولى الحسن الأول إلى محمد بن العربي الطريس، تطوان: الخزانة العامة، محفظة 59/5، بتاريخ 4 جمادى الثانية 1304هـ/ 28 فبراير 1887م.

50 الأودي، **الاستبصار**، أورده حيمر، ص 225.

1334هـ"[51]؛ وهي شهادة تلخص مجمل ما ذكرته شيزوتي في خصوص العراقيل التي واجهت إقامة دار السلاح في فاس، خلال عهدي الوصاية وفترة السلطان عبد العزيز. ويبقى السؤال مثارًا في خصوص الحيثيات التي حالت دون حدوث تقارب بين الجانبين على غرار الموقف الإيجابي الذي طبع موقف شيزوتي من محمد بن الكعاب الشركي.

يحضر الاستعلاء الثقافي والنظرة الدونية للعامل المغربي على امتداد صفحات كتاب شيزوتي، فلا تكاد تقرأ معلومة تاريخية إلّا وجدت إلى جانبها الأحكام الانطباعية، ومن ذلك تذكر أن حوادث الشغل لم تسجل في دار الماكينة، وأن المغرب كان يفتقد الأطباء. وعلى نحو مبطن تقول إن وعي العمال المغاربة في خصوص خطورة المتفجرات كان متأخرًا، فكان على الإيطاليين في نظرها أن يفرضوا "على المغاربة القدريين بفعل الطبع والديانة، أن يتحلّوا بالحذر والحكمة في التعامل مع المتفجرات التي كانوا يتعاملون معها في لاوعيهم باعتبارها مواد غير خطرة [...] مما كان يحتّم وجود إدارة دقيقة ومراقبة على كل المستويات" (ص 149). وهو قول لا يستقيم؛ ذلك أن المتعلمين المغاربة الذين التحقوا بالمصنع، كانت لهم مؤهلاتهم التي تسمح لهم بتسييره، نظرًا إلى الخبرة التي راكموها في دول أوروبا، ومنهم محمد بن الكعاب الذي ترك تصاميم هندسية متعددة لقطع السلاح الناري، ومنهم متعلمون تخصصوا في صناعة المتفجرات والسلاح الناري في بلجيكا وإيطاليا وفرنسا. ويبدو أن جل المتعلمين الذين جلبهم السلطان الحسن الأول إلى المصنع غادروا نحو قطاعات أخرى، نظرًا إلى نظام الأجور الجديد والهزيل، وتم تعويضهم بحرفيين عاديين من مدينة فاس، فكان متوقعًا أن تحصل النتيجة التي أشارت إليها شيزوتي.

من جانب آخر، ودعمًا لما قلته في خصوص تفوّق العمال المغاربة، نقرأ في وثائق رسمية الإهمال الذي عانته مجموعة من المتعلمين، سواء الذين درسوا في فرنسا أم في بريطانيا أم في ألمانيا، ومنهم على سبيل المثال، محمد بن الحاج النجار، فقد تدرب وتعلم اللغات في طنجة، والتحق بمدينة أولم Ulm في جنوب غرب ألمانيا، وبعد ذلك في معامل كروب، وعندما عاد إلى المغرب، عُيّن برتبة مقدم للطبجية بطنجة[52]، واشتغل في أيامه الأخيرة بالفلاحة، وعندما سُئل عمّا تعلّمه، قال: "النصارى كايعلموا لعقل والمسلمين كايحفيوه"[53]. وهي إشارة معبّرة عن إشكالية العقلانية كما تمثلها الطلاب المتعلمون بالعالم الغربي، وعاشوا ضمن مناخها العلمي والاجتماعي والفكري والسياسي، وعندما عادوا إلى بلدهم، أدركوا مستوى التأخر الإداري والسياسي، وعدم قدرة المناخ البيروقراطي على مسايرة المستجدات، وعلى إدخال أنماط التحديث الغربي إلى البيئة المغربية.

من هذه الزاوية، فإن وصف شيزوتي للشبان المغاربة بالتأخر والكسل يبقى مجانبًا للحقيقة التاريخية، وأن حكمها بتأخر المغاربة في المجالات المذكورة، يبقى متلبسًا بالذات الاستعلائية، وارتبط، موضوعيًا، بفترة الضعف السياسي للمغرب وأفول الوظيفة الرئيسة لدار الماكينة، ومغادرة غالبية الأطر المغربية الخبيرة لها.

استنتاجات عامة

أثار كتاب شيزوتي فرارا العديد من القضايا التي تخص السياسة والمجتمع والتحديث في المغرب في أواخر القرن التاسع عشر، وهي فترة حُبلى بالتحولات المصيرية، نظرًا إلى طبيعة الأوضاع الداخلية وحجم التنافس الدولي الأوروبي حول المسألة المغربية.

51 المرجع نفسه.

52 رسالة محمد بن سعيد، بتاريخ 20 شعبان 1305هـ/ 2 ماي 1888م، مجموعة الوثائق الملكية، الترتيب العام. وورد في الرسالة: "وصل للعبد الخديم الكتاب الشريف وفيه أمرني أن أوجه الطبجيين الذين كانا يتعلمان ببلاد البروس وظهرت نجابتهما في حرفتهما [...] وانقطعت عليهما المئونة [المؤونة] التي كانا يقبضانها بطنجة من جملة الطبجية التي بها يطلبان من سيدنا أن يأمر بردها لهما ...".

53 بوشعراء، ص 1349.

لم أرد التطرق إلى العديد من القضايا التي أثارتها شيزوتي في كتابها إلّا تلميحًا، من قبيل المضامين الإمبريالية التي بقيت ملازمة لها في مختلف المواضيع التي أثارتها، وهذا موضوع مهم يحتاج إلى مساحة أوسع، لتناوله بالدقة العلمية المطلوبة، لكني حاولتُ التركيز على قضية محورية تخص موقفها من مسألة التحديث في المغرب، وقضية المتعلمين المغاربة الذين درسوا في دول أوروبا الغربية.

وإذا كان الكتاب يحمل طابع الذكريات الشخصية، لكنه حمل قيمة تاريخية كبرى. ونظرًا إلى المعلومات التاريخية المتناثرة في صفحاته المختلفة، وجب على المهتمين بالتاريخ الوقوف عندها مليًّا باعتبارها مصدرًا تاريخيًا لا يمكن الاستغناء عنه.

حملت شيزوتي في كتابها بعض الاستعلاء والنظر الدوني إلى المغرب، وحاولت على امتداد مذكّراتها التركيز على ما رأته تخلّفًا في سلوك أفراد المجتمع المغربي.

كان لشيزوتي موقف إيجابي من السلطان الحسن الأول وقيّمت إنجازاته التحديثية بالإيجابية، وأوردت في خصوص هذه الفترة (1873-1894) معلومات جديدة في الحقل التاريخي، وتخص تجربة البعثات التعليمية المغربية نحو أوروبا، واطّلاع الحسن الأول على التجربة اليابانية في الموضوع، وأظنها أول إشارة إلى الموضوع الياباني إطارًا للتمثل والاحتذاء من الإدارة السياسية في المغرب؛ ومن شأن هذه المعلومة أن تفتح لنا نوافذ حقيقية لمعرفة الآليات التي مكّنت السلطان الحسن الأول من الاطّلاع على التجربة اليابانية، علمًا أن الصلات السياسية والدبلوماسية مع المشرق العربي والاتصالات مع الهيئات الأجنبية فرضيتان محتملتان في تحقيق هذا الاطلاع.

من جانب آخر، فتحت أمامنا رحلة شيزوتي، وما تضمّنته من معلومات تاريخية، إمكانية الاستفادة من الأرشيف الإيطالي والمذكرات الشخصية للرحالة والدبلوماسيين الإيطاليين، في ملء بياضات المتن التاريخي الخاص بمجموعة من القضايا الخاصة بالمقاربة التحديثية التي رام المخزن تحقيقها، في أواخر القرن التاسع عشر، والعراقيل التي اعترضته في سبيل تحقيق ذلك.

ضمن هذا السياق، بذلت بهيجة سيمو جهدًا مميزًا وغير مسبوق في تناول العلاقات المغربية - الإيطالية، وحمل كتابُها العديد من الوثائق ذات الأهمية البالغة الخاصة بالمغرب وإيطاليا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ويبقى إسهامها في حاجة إلى إتمام بتفصيل مقاطع هذا الأرشيف ووضعه لدى جمهور الباحثين، لاستكمال بعض معالم الصورة التحديثية في المغرب في الفترة المذكورة، على شاكلة **المغرب في الأرشيف البريطاني** لخالد بن الصغير.

فتح أمامنا الكتاب، أيضًا، أهمية الأرشيف الأجنبي في استكمال العديد من الثغرات المبثوثة في ذاكرتنا التاريخية، وعلى سبيل المثال لا الحصر، تتوافر لنا وثيقة تاريخية فريدة تخص بعثة تعليمية مغربية توجّهت إلى الولايات المتحدة في عام 1885، وأوردها لويس ميج Louis Miége اعتمادًا على مقالة صدرت في جريدة *Morocco Times* **أزمنة المغرب**، ونتوفر، في خصوصها، على رسالة سلطانية في الخزانة العامة في تطوان، جاء فيها: "وصل كتابك وبطيّه زمام الصائر على المتعلمَين – اللذين كانا توجّها لبلاد المركان على يد مكلين [القائد ماكلين] يتعلمان حل المكاحل ومسحها، ووردا لحضرتنا الشريفة برباط الفتح"[54].

يبدو أن البعد المجالي بين البلدين حال دون تدفق البعثات التعليمية المغربية إلى الولايات المتحدة، وأسهم الإنكليز في تحفيز المخزن على إيفاد طالبين نحوها. ولم يتعدَّ الأمر أن يكون مجاملة دبلوماسية، وتثير الإشارة المذكورة إمكانية فتح مجال البحث لاستكمال بعض الحلقات المفقودة من ذاكرتنا التاريخية، علمًا أننا لا نعرف إلى الآن أي معلومات حول البعثة وأفرادها، وطبيعة تكوينها، والمناطق التي درست فيها، ومقدّمات إرسالها، وأظن أن البحث في الأرشيف الأميركي قمين بتقديم معلومات مهمة خاصة بالموضوع، ويمكن أن يتوّج ذلك بكتابة مقالة علمية تكون لها فائدتها للبحث الأكاديمي ولإتمام بعض الصور المبتورة من تاريخنا وتحديثنا في أثناء الفترة موضوع الدراسة.

54 رسالة الحسن الأول إلى الطريس، تطوان: الخزانة العامة، محفظة 161/3، 23 حجة 1302هـ/ 3 أكتوبر 1885م.

المراجع

العربية

بن الصغير، خالد. **المغرب في الأرشيف البريطاني: مراسلات جون دراموند هاي مع المخزن (1846-1886)**. الدار البيضاء: دار نشر "ولادة"، 1992.

بن زيدان، عبد الرحمن. **الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة**. الرباط: المطبعة الاقتصادية، 1938.

_____. **العز والصولة في معالم نظم الدولة**. الرباط: المطبعة الملكية، 1382هـ/ 1962م.

_____. **إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس**. الرباط: المطبعة الوطنية، 1990.

_____. **العلائق السياسية للدولة العلوية**. تحقيق وتقديم عبد اللطيف الشاذلي. الرباط: المطبعة الملكية، 1999.

_____. **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**. تحقيق علي عمر. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2008.

برزيني، لويجي. **تحت الخيمة: انطباعات صحافي إيطالي بالمغرب سنة 1906**. ترجمة ناصح رضوان ومصطفى نشاط. طنجة: سليكي أخوين، 2022.

بنعبد الله، عبد العزيز. **الجيش المغربي عبر العصور**. الرباط: المطبعة والمكتبة العالمية، 1986.

بوشعراء، مصطفى. **الاستيطان والحماية بالمغرب (1863-1894)**. الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 1989.

بولحية، يحيى. "الصحافة والمسألة الدستورية في المغرب قبل الحماية الفرنسية 1916". **تبين**. العدد 3 (آذار/ مارس 2013).

حركات، إبراهيم. **التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية**. الدار البيضاء: مطبعة الدار البيضاء، 1405هـ/ 1986م.

جادور، محمد. "مدّالينا شيزوتي فرارا: ذكريات شخصية لحياة حميمة بالمغرب، ترجمة مصطفى نشاط ورضوان ناصح (الرباط: مطابع الرباط نت، 2019)، 254 ص". مجلة **هسبريس تامودا**. مج 3 (2019).

داود، محمد. **تاريخ تطوان**. تطوان: المطبعة المهدية، 1386هـ/ 1960م.

زين العابدين، جلال. "تمثلات مغرب نهاية القرن 19 وبداية القرن 20، بعيون رحالة إيطالية". **دراسات استشراقية** (بيروت: المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية). العدد 30 (2022).

السليماني، محمد بن محمد الأعرج. "زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ، إعداد عبد الرزاق بنواحي". رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ المعاصر. كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، 1417هـ/ 1997م.

سيمو، بهيجة. **الإصلاحات العسكرية بالمغرب (1844-1912)**. الرباط: المطبعة الملكية، 2000.

_____. **العلاقات المغربية - الإيطالية (1869-1912م)**. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة؛ منشورات اللجنة المغربية للتاريخ العسكري، 2003.

كمبنيني، ماسو. **ماضي العالم العربي ومستقبله من خلال مقدمة ابن خلدون.** ترجمة مصطفى نشاط وناصح رضوان. عمان: دار فضاءات للنشر والتوزيع، 2021.

مارجلين، جيسيكا. **القضاء المتعدد: اليهود والمسلمون في المغرب المعاصر.** ترجمة خالد بن الصغير. الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2021.

معينو، أحمد. "ترجمة مختصرة لتلميذ من بعثة الحسن الأول 1297هـ: محمد بن الكعاب الشركي". **مجلة البحث العلمي.** العدد 25 (1976).

المنوني، محمد. **مظاهر يقظة المغرب الحديث.** ط 2. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985.

نشاط، مصطفى. **إطلالات على تاريخ المغرب خلال العصر المريني.** وجدة: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2003.

_____. **جوانب من تاريخ المشروبات المسكرة بالمغرب الوسيط.** الرباط: منشورات الزمن، 2006.

_____. **السجن والسجناء: نماذج من التاريخ الوسيط.** الرباط: منشورات المجلس الوطني لحقوق الإنسان، 2012.

الأجنبية

De Amicis, Edmondo. *Le Maroc*. Henri Belle (trad.). Pais: Librairie Hachette, 1882.

Pierre, Loti. *Au Maroc*. Paris: La boite de document, 1988.

Vittorini, Valerio. "Le Maroc dans les récits de voyage de Maddalena Cisotti Ferrara et Luigi Barzini." *Loxias-Colloques*. 11/6/2022. at : https://bit.ly/3TCzjnC